هوامش

بالرغم من أنه لا ينتمي لمجموعة المنشآت الأثرية، أصبح جامع «خوجه تبه» قبلة لزائري العاصمة التركية باعتباره أحد معالمها البارزة، خصوصاً أن لبنائه حكاية خاصة

يضم الجامع قاعة مؤتمرات ومكتبة ومرآباً للسيارات (Getty)

جامع «خوجه تبه»

جدال التراث والحداثة في العمارة التركية

إسطنبول ـ **ياسر غريب**

في أربعينيات القرن الماضي؛ نشأت فكرة إقامة جامع كبير في أنقرة، ونشأ معها جدالٌ كبير لم يتوقف. كانت فكرة الجامع ملّحة مع نمو السكان في العاصمة الجديدة، غير أن أمر تصميمه وبنائه لم يكن يسيراً. فعلى أي طراز معماري سوف تبني تركيا الحديثة جامعها الجديد؟ كانت البلاد تعيش جدالاً ثقافياً كبيراً واستقطاباً حاداً بين الماضي القومي العثماني بفنونه الكلاسيكية من جهة، والدولة الحديثة التي تتطلع نحو الغرب وثقافته وذائقته. انعكس هذا الصراع على مشروع الجامع الذي شهد حَمْلاً ثقيلاً ثم ولادة متعثرة، وجدالاً بقي حتى بعد أن افتتح للصلاة في 1987.

بداية مبكرة

في نهاية 1944 تأسست «جمعية بناء مسجد في يني شهير بأنقرة»، أسسها 73 عضوا برئاسة أحمد حمدي أقسيكي. دعت الجمعيةُ المهندسين المعماريين سنة 1947 إلى تقديم مشروعاتهم المقترحة لبناء الجامع المنتظر، ولكن لم ينجح أحد، وتوقفت جهود الجمعية! وفي أثناء تولي عدنان مندريس (1899-1961) رئاسة الوزراء؛ عاد مشروع الجامع للحياة مرة أخرى، حين خصص مندريس في 1956 قطعة أرض لبناء الجامع فوق قمة عالية في منطقة «قزل أي». وفي 1957 دُعي المهندسون المعماريون إلى مسابقة جديدة للتصميم؛ فتقدم 36 مشروعاً. تم تقييمها جميعاً، ووقع الاختيار على مشروع مشترك قدمه المهندسان ودعت دالوكاي (1927-1991) ونجدت تيكيلي أوغلو (1930-1998). المشروع المقبول كان تصميمه مبتكراً وحديثاً للغاية، فتعالت الأصوات المحافظة الناقدة. وبالرغم من أن أعمال البناء قد بدأت، فإن الانتقادات الحادة تسببت في توقف العمل عند مرحلة الأساس. كان المهندس ودعت دالوكاي الذي تولى بعد ذلك منصب رئيس بلدية أنقرة (من 1973 حتى 1977) آنذاك في قمة عطائه الفني، فقد فاز في 1969 بمسابقة تصميم جامع «شاه فيصل» في إسلام آباد، وحصل المسجد على جائزة آغا خان للعمارة بعد افتتاحه سنة 1987، بالرغم من الانتقادات التي وجهت له مثل غياب «القبة» باعتبارها أحد العناصر الرئيسية في عمارة المساجد التقليدية. كذلك حصل دالوكاي على امتياز إنشاء البنك الإسلامي للتنمية في الرياض. لكن صفحة جامع خوجه تبه طويت جزئياً في تاريخه المهني، حيث سيقام التصميم الجديد معدلاً على تصميمه وأساساته الأصلية.

النموذج الثالث

أجريت مسابقة للمرة الثالثة سنة 1967، واختار المحكمون هذه المرة تصميماً محافظاً مرتبطاً بالماضي العثماني قدمه المهندسان محمد فاتن أولينجين (1920-2017) وخسرو تايلا (1925-2014) اللذان قدما تصميماً انتقائياً مستوحىً من مسجد السليمية في أدرنة، ومسجد شاهزاد والسلطان أحمد في إسطنبول، وهي مساجد تأثرت بالرومان الشرقيين وعمارة آيا صوفيا. يحتذي التصميمُ الجديد الطرازَ المعماري التقليدي الذي طوره «المعماري سنان» (1490-1588)، المتمثل في قبة رئيسية ترتكز على 4 أعمدة ضخمة وأربع قباب. ظل العمل بطيئاً جداً، مع استمرار الانتقادات التي ينتصر بعضها للروح الحداثية وبعضها للروح التقليدية. وفي عام 1981، استحوذت المؤسسة الدينية التركية على أصول بناء الجامع، وهنا تسارعت الإنشاءات نسبياً إلى أن اكتمل العمل، وافتتح للصلاة عام 1987م في عهد رئيس الوزراء «تورغوت أوزال».

مجمع متكامل

شيد الجامع على مساحة 4500 متر، وهو يتسع لحوالي 24 ألف مصلٍّ، وتعلوه أربع مآذن يصل طولها إلى 88 متراً، وهي مزودة بمصاعد كهربائية وسلالم. والطابق السفلي للجامع عبارة عن سوق كبير يحتوي على عشرات الوحدات التجارية والإدارية. ويضم الجامع أيضاً قاعة مؤتمرات ومكتبة ومرآباً للسيارات. أما عن الديكور الداخلي للجامع؛ فهو مأخوذ أيضاً من العمارة العثمانية الكلاسيكية، ويمكن أن تشاهد في الجامع أنماطاً من السجاد شبيهة بأنماط السجاد في جامع «أفيون قره حصار» الذي يعود تاريخه إلى سنة 1272. صُمِّم وصنع خصيصاً للجامع كافة عناصره الداخلية مثل المحراب والمنبر والأبواب والبلاط والرخام والثريات، وهي عناصر تمتاز صناعتها بالدقة العالية. وقد استخدم البلاط والرخام والمعدن الأصفر وأوراق الذهب والدهانات الخاصة كمواد إنشائية. وبالرغم من أنه لا ينتمي لمجموعة المنشآت الأثرية؛ أصبح الجامع قبلة لزائري العاصمة التركية باعتباره أحد معالمها البارزة.

باختصار

شيد الجامع على مساحة 4500 متر، وهو يتسع لحوالي 24 ألف مصلٍّ، وتعلوه أربع مآذن يصل طولها إلى 88 متراً.

■■■

التصميم الداخلي للجامع مأخوذ من العمارة العثمانية، ونشاهد فيه أنماطاً من السجاد شبيهة بأنماط السجاد في جامع «أفيون قره حصار».

■■■

صُمِّم وصنع خصيصاً للجامع كافة عناصره الداخلية مثل المحراب والمنبر والأبواب والبلاط والرخام والثريات.

وأخيراً

أميركا التي تحيّرنا

معن البياري

ما هي أميركا التي تجعلنا، نحن العرب، مستنفرين، ثلاثة أيام، لمعرفة الذي اختاره مواطنوها رئيساً لهم؟ هل هي التي تضرب ملجأ العامرية في بغداد، بقنبلتين حارقتين، زنة كل منهما ألف رطل، فتقتل أكثر من أربعمائة مدني فيه، أم هي التي يشتهي ملايين منا القدرة على ابتعاث أبنائنا للتعلّم فيها، ونيل أعلى الشهادات منها؟ ما هي أميركا هذه التي لا يستحسن سوري في إسطنبول فوز بايدن رئيساً، ويخاف موريتاني في نواكشوط من ارتفاع ضغط الدم لديه لو باغته على شاشة التلفزيون قدامه نبأ فوز ترامب برئاسة ثانية؟ هل هي جون بولتون يرفع يده معلناً فيتو في مجلس الأمن على مشروع قرار ينتقد إسرائيل، لارتكابها مذبحة في بيت حانون قضى فيها عشرون فلسطينياً، أم هي ريتشيل كوري تعتصم أمام منزل أسرة فلسطينية في رفح أراد المحتلون هدمه، فقتلتها جرّافة إسرائيلية؟ ما هي أميركا هذه التي صار ملايين العرب يعرفون عدد أصوات مندوبي المجمّع الانتخابي التي نالها ترامب في ولاية فلوريدا، وهم لا يعرفون أسماء أربعة وزراء في حكومات بلدانهم؟ هل هي التي يصعد فيها باراك أوباما رئيساً أم التي يقتل فيها شرطي مواطناً أسود، اسمه جورج فلويد، خنقاً ببسطاره؟ ما هي أميركا هذه التي يتعوّذ ناس في أم درمان في السودان ومخيم جباليا في فلسطين وفي الصالحية في الكويت من الشيطان الرجيم، تطيّراً من بقاء ترامب في البيت الأبيض، فيما عرب آخرون، من طبالي حاكمين في ثلاث دول عربية (مثلاً) يرون إصاباتهم بالسحايا أسهل من وقف المذكور عن مزاولة الرئاسة؟ هل هي ميريل ستريب التي تعلن أمام جمهرة من مستمعيها، في حفل مشهود، وأمام نظّارة بلا عدد في العالم، أن ترامب عنصري ضيق الأفق، وليس مؤهلاً للرئاسة، أم هي غربة الروائية الزنجية، توني موريسون، في بلدها الولايات المتحدة، على ما تقول؟ ما هي أميركا هذه التي يورّطنا بايدن، الذي أعلن صراحة صهيونيته، في ترقّب ظفره بالرئاسة؟ هل هي الناشطة إيميلي واشمان التي توالت زياراتها لفلسطين، للتظاهر ضد جدار الفصل العنصري، ثم تتزوج شاباً من بلدة دير الغضون، أم هي صواريخ بيل كلينتون على مصنع للدواء في الخرطوم؟ ما هي أميركا هذه التي تتفرّغ شاشات فضائيات العالم، ومنها العربية بداهة، لمتابعة درجات حرارة ترامب لمّا أُصيب بكورونا؟ هل هي التي جعلت فأراً صنعته وسمّته ميكي ماوس نجماً عالمياً، وتحبّب فينا ظرافة مقالبه ضد القط الخائب، أم هي التي يأمر جنرالٌ منها احتلت قواته الفلبين، قبل أكثر من 120 عاماً، جنوده بالقتل والحرق أكثر وأكثر، ليسعد بذلك أكثر وأكثر؟

هناك مشكلة في وعينا العربي العام اسمها أميركا. البلد الكثير الجغرافيا والقليل التاريخ على ما وصفها محمد حسنين هيكل لمّا «شرّح» طريقها إلى أن تصير «الإمبراطورية» الراهنة، ورأى علاقة العرب بها شبه مأساة إغريقية. أميركا هذه التي يستنطقك موظفٌ منها، إذا ما طلبت تأشيرة دخول إليها، بأسئلةٍ بلا عدد عن أسرتك وعائلتك وحياتك. وكان مصطفى أمين قد كتب أنه لمّا طلب التأشيرة من السفارة الأميركية في القاهرة، في ثلاثينيات القرن الماضي، سألوه، في استمارة من ثماني صفحات، مثلاً، عن عدد مرّات استحمامه في الأسبوع، وما إذا كان شيوعياً، وما إذا كان ثمّة مختل عقلياً في عائلته، وهل يحب الممثلة غريتو غاربو أم مارلين ديتريش. أخبر قرّاءه، في كتابه الذي صدر في 1943 «أميركا الضاحكة»، عمّا شاهده من مفارقاتٍ في بلد الدهشة والعلم، وقد تخرّج من إحدى جامعاتها في 1938، من قبيل ما صادفه عن التأمين ضد خيانة الزوجات! اختلفت كثيراً مضامين كتاب أمين عن كتاب «أمريكا التي رأيت»، لسيد قطب الذي جال في الولايات المتحدة سنتين، (عاد في 1950)، ورآها «ورشة ضخمة ليس إلا»، و«مصدر خطر على البشرية لو تزّعمت العالم»، و«أمة تسري شهوةُ الحرب في عروقها وأوصالها.. محطّمة نفسياً مريضة أخلاقياً مشوهة شعورياً». رآها «تصلح أن تكون ورشة العالم، فتؤدي وظيفتها على خير ما تكون، أما أن يكون العالم كله أمريكا فتلك كارثة». وبحسبه، السينما هي الفن الوحيد الذي يتقنه «الأمريكان».

> أميركا ربما هي بلد الفرص منذ قامت، وقد قامت مجتمعاً متنوعاً نشطاً بأخلاط من قوميات تشكلت أمةً

قصارى الكلام، أميركا درسٌ عويص، ليست طاعوناً تماماً، كما جهر ضدها محمود درويش منفعلاً. ربما هي بلد الفرص منذ قامت، وقد قامت مجتمعاً متنوعاً نشطاً بأخلاط من قوميات تشكلت أمةً، البلد الذي أمكن لمرتا حداد، بطلة رواية ربيع جابر «أميركا» (المركز الثقافي العربي ودار الآداب، بيروت، 2009) أن تصل إليها، في 1923، للبحث عن زوجها الضائع الهارب، ثم تلقاه متزوّجاً، فتعكف، بكدّ كثير، على أن تصنع كينونتها، فتملك مزرعةً كبيرة، بعد عنت كثير في الحياة. أميركا هي هذه التي نحبّ أن نراها، بلد ستيف جوبز وجين فوندا، لا بلد دونالد رامسفيلد ودونالد ترامب... لكننا هنا نخطئ، لأنها بلد ذينك وهذين.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**